عشق السلطة:
من الذين يدفعون الثمن؟! (*)

لازلت أذكر رغم ركام السنين، كيف اعتدت فى سنوات الطفولة والصبا، أن أصعد إلى سطح المنزل لأراقب الطيور فرحا شغوفا بحركاتها وسكناتها، لا يفوتنى وأنا أراقبها لاعباً لاهياً مظاهر "الأبهة" و "المريسة" التى يبديها الديك الرومى، لا يكتفى بما فى خلقته من مظاهر التميز حجما وريشا و "عُرْفاً"، وإنما يحلو له أن يمضى أمام الإناث، والمشاهدين أيضاً، معجباً متعاجباً بشكله وسلطانه.. ينفش ريشه نفشته المعروفة وينفخ صدره ويطلق صوته المميز وكأنه يقول للدنيا: "ما عليك قدى! ".. ولم يكن يفوتنى أيضا الديك البلدى فى حرصه على إظهار سلطانه على دجاجاته!.. فلا يكتفى هو الآخر بأن الطبيعة ميزته حجماً وشكلاً وعرفاً وذيلا عن الإناث، وإنما لا ينى قط فى تأكيد سلطانه بحركاته وسكناته والصوت الذى يطلقه بين الحين والحين ليقول: "أنا الملك "!.. وجدت ذلك حين درجت على الاختلاف - عاشقا مراقبا - إلى حدائق الحيوان!.. كم أدهشنى أننا جميعا نرتد إلى أصل واحد فى تيهنا بالذات وإعجابنا بها، وفى حبنا للصدارة!! رأيت ذلك فى الطاووس الذى يمشى مشيته الخاصة معجباً مزهواً بنفسه وريشه وألوانه، ناشراً ذنبه كالقوس.. ورأيته فى الأسد: ملك بالفعل فى مشيته وشخصيته الناطقة بصدارته، الحريص على الإشعار بها!.. حتى

---

* ٢٠٠٥/٩/٧

جبلاية القرود، رأيت فيها "الزعيم" الحريص على زعامته وسلطته وسلطانه، واستهوتنى هذه الملاحظة حتى صاحبتنى فى مراقبتى للآدميين الذين لم ينفصل عنهم - بقدر أو بآخر - هذا الانشغال بالصدارة أو حب الرئاسة الذى ربما ظهر على الطفل فى سنوات حَبْوه فى محيطه من الأطفال!

كنت مجنداً - بعد تخرجى عام ١٩٥٩، فى الاتحاد الرياضى للمدفعية، لأمثله فى بعض الرياضات التى كنت أحيدها، وكان معى بفريق السباحة باقة من أعز الأصدقاء.. لازلت أرى بعضهم لماماً حتى اليوم، كان الاتحاد يشمل ضباط صف من تحت السلاح، وجنوداً من غير ذوى المؤهلات، وبعضا من حملة المؤهلات العليا.. لازلت أذكر حتى اليوم الجندى المجند غير المؤهل "عبد الرسول".. ضم بعدنا بشهور فصارت لنا أقدمية عليه!!... لا يعرف الكتابة ويكاد يفك الخط، فلما لم يجدوا له عملاً، ولا رياضة!، جعلوه فى معاونة رقيب أول الاتحاد.. كان الرقيب الحكمدار قوة مهيمنة فى الوحدة، موكول إليه تصاريح المبيت التى كناً جميعاً ننتظرها على شوق، ونتفنن فى محاولة الوصول إليها حتى نبكر فى الانصراف، وفجأة وجدنا الجندى "عبد الرسول" هو المندوب السامى لتوزيع تصاريح المبيت.. فما هى إلاّ أيام حتى تحول الجندى عبد الرسول البسيط الغلبان جداً إلى فرعون حقيقى، يمارس فى متعة وزهو وتسلط سلطة التحكم فى توزيع التصاريح لا يستثنى من صولجانه وتشفيه - ضباط الصف، أو الجنود السابقين له فى الأقدمية!!.. صار "عبد الرسول" بعد "حنفية" التصاريح التى أوكل توزيعها إليه، غير "عبد الرسول" الطيب البسيط الغلبان الذى كان!!!

ما الذى فى الجبلة البشرية يجعل الآدمى يتيه بالسلطة ويعشقها هذا العشق الذى يملك عليه كل أمره؟!.. رأيت ذلك كثيراً، وعرفت مما رأيت أن حياة السلطة قفراء مجدبة، أشق ما فى جفافها

وإجدابها أنها تحرم صاحبها من "الصداقة" و "الصديق ".. ليس لصاحب السلطة صديق، ولن يكون، لأن المقتربين منه طلاب منافع أو أصحاب أغراض، ويندر من يقترب لمشاعر انسانية صادقة!.. حتى أصدقاء الأمس، سرعان ما تجتاحهم حمى التسابق على المنافع والأغراض والمطالب فيتحولون عن المحبات الخالصة وتولى معها الصداقة الحقة، ويندرجون فى طوابير طلاب المنافع!!.. ينظر صاحب السلطة فلا يجد حوله إلاّ الإجداب والصقيع، ومع ذلك لا يزال معظم الناس على عشقهم للسلطة وطلبهم للصدارة وعشقهم لهذا السراب حتى النخاع!!!

هل يفسر حب الخلود أو سرابه هذه الظاهرة، سيّما فيمن يرتقون سدّة الحكم وتؤول إليهم مقاليد بلادهم؟!.. قد تتملك الآدمى أمنية الخلود أو طلب الذكرى ويتمنى بذلك أن يحفر اسمه على جدار الزمن! فالموت حقيقة ماثلة أمام العاقل واللاهى - ليس منه مفر، به ينقطع وجوده المادى، فهل من سبيل إلى امتداد معنوى أو مادى بديل يحفظ له الذكرى فى عالم الحياة بعد رحيله عنها؟!.. هناك من يتلمس الذكرى فى أثر يبنيه، أو فى كتاب يؤلفه، أو فى عمل فنى يبدعه، أو فى بعض الأعمال الباقيات الجاريات التى ينتفع بها الناس ومع انتفاعهم بها يذكرون صاحبها، أو فى بنائه أحد المساجد أو الكنائس أو المعابد التى يسرف فى فخامتها وزخرفتها ويترجّى أن يرقد جثمانه فيها ليزوره من يزور هذه المشاهد الباقية التى تتعلق بها قلوب وعواطف ومشاعر الناس!!

على أن عشق "الامتداد "، وبقاء الذكرى، كثيرا ما ينصب فى عشق النسل من الذكور، لأن الذكر يحمل اسم أبيه، وهو فى ذلك يجد عوضاً كأنه الحى من خلال تردد اللقب مع الابن ثم الحفيد، وقد يتغافل فى حرصه على هذا السراب عن تذكر أن "اللقب" هو الآخر سراب يؤدى إلى عدم فسوف يتوارى اللقب قطعاً مع توالى

الأحفاد وعدول المجتمعات فى العصر الحديث على التمسك بمنطق "الأسر" و "ألقاب" هذه الأسرات، ومع ذلك فليس فى هذه الميول بأس، لأنها إن لم تنفع، فإنها لا تضر ـ ولكن يأتى الضرر حين يقترن حب السلطة، بحب الامتداد من خلال الأبناء فى تولى حكم الدول والأمم والشعوب!!.. على هذا درجت "الملكيات" التى أخذت تتقلص الآن حتى كادت تتوارى فى عالم اليوم الذى مال عبر نضال طويل إلى هجر الملكيات الوراثية إلى الجمهوريات البرلمانية أو الرئاسية، القائمة على الاختيار والانتخاب الحر المفتوح لانتقاء الأكفأ والأقدر والأفضل بعيدا عن الأعراق والأنساب والمواريث!!.. لا تقبل الجمهوريات سنن التوريث حتى ولو كان الوريث أفضل الناس طرّاً، لأن الضرر اللاحق من التوريث وباله كبير كبير كبير، ينعطف بنظم الحكم انعطافة حادة تحولها من جمهورية انتخابية حرة ـ نشأت فى لأصل بديلا عن الملكية الوراثية ـ إلى جمهورية وراثية، ولا يشفع لهذه الانعطافة الحادة أن يكون "الوريث" "سوبرمان" لا مثيل له ولا صنو ولا نظير، لأن ذلك إن جرى ـ يعنى هدم مبدأ "تداول" السلطة، وهو روح ولب وصمام أمن النظم الجمهورية، فبلا تداول للسلطة، وهى لا تتداول إذا ورث الابن أباه، تتحول الجمهوريات إلى "تكايا" وإلى جمهوريات ديكتاتورية مستبدة تفقد كل المقومات والضمانات والغايات التى ينهض عليها مبدأ" تداول" السلطة الذى يعنى فى جوهره أن لكل حاضر غداً محكوماً بغير ما كان محكوما به الأمس!! فبلا تقلب الأحوال وتداول السلطة بعيداً عن الأعراق والأنساب تخسر الأمم والشعوب ـ بإطلاق أيدى حكامها ـ خسارة جمّة جدا لا سبيل لرتقها، حتى ولو كان الوريث جدلا هو الـ "سوبرمان" الذى لا صِنْو له ولا نظير!!!

***

قبل معاوية بن أبى سفيان، التزم الحكم الإسلامى بالشورى ولم يحد عنها قط قبيل ما فعله معاوية حين أخذ البيعة فى حياته لابنه يزيد، فأحدث فلقاً وشرخاً هائلاً فى دولة الإسلام ظلت تعانى منه وأمة الإسلام ثلاثة عشر قرنا من الزمان.. قد علم الصحابة مما علمهم القرآن المجيد أن المؤمنين قد وصفوا فى القرآن بأنهم أهل شورى: "وأمرهم شورى بينهم" وعلموا مما علموا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - على نبوته وإلهامه ووحيه، قد أمره الله تعالى أمراً بأن يأخذ أمور الدنيا بالشورى، فقال له فى قرآنه المجيد "وشاورهم فى الأمر" - وبهذا وغيره جرت الأحاديث النبوية التى أكدت للصحابة أن سياسة أمور الدنيا لا تكون إلاّ بالشورى والمشاورة، أى بالديمقراطية بلغة زماننا!

يوم قُبض رسول القرآن - عليه السلام، لم يورث الأمر أحداً، ولم يأمر بأن يتولاه أحد، وترك الأمر شورى للمسلمين، فكان اجتماع سقيفة بنى ساعدة صورة رائعة من صور الشورى.. يومها سارع الأنصار بطلب الإمارة لأنهم نصروا وآووا واستقبلوا الدعوة بالمدينة واحتضنوها وجاهدوا فى سبيلها حتى أظهرها الله، فكره عمر بن الخطاب أن تتحول الخلافة من المهاجرين إلى الأنصار، وأشار بمبايعة أبى عبيدة بن الجراح الذى وصفه رسول القرآن بأنه "أمين الأمة "، بيد أن أباعبيدة يرفض غاضبا، ويعاتب ابن الخطاب بأنه لم ير له فهة (زلة) قبلها قط، فكيف به يبايعه ويتجاهل أبابكر الذى كان مع النبى ثانى اثنين إذ هما فى الغار!!.. وكما رفض أبوعبيدة، عاود الرفض هو وعمر بن الخطاب حين حضر أبو بكر الصديق وطلب من المجتمعين فى السقيفة أن يبايعوا أحد الرجلين! حتى إذا ما وصلت المناقشات والمساجلات إلى غايتها، بايع الجميع أبا بكر الصديق، فولى الأمر بمبايعة عامة من المسلمين قوامها الشورى: مرادف الاقتراع الديمقراطى بلغة زماننا، ومضى الأمر على الشورى والمبايعة حتى

برغم رغبة أبى بكر فى استخلاف عمر بن الخطاب، فلم تكن ولاية عمر بمحض استخلاف، وإنما تلاه بيعة عامة من المسلمين قائمة على الرضا والحرية والاختيار، فلما طُعن عمر، أوصى بأن يكون الأمر لمجلس شورى من الستة الباقين من العشرة الذين وعدهم الرسول - عليه السلام - بالجنة وتوفى وهو عنهم راض: على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف.. شكل عمر منهم مجلس شورى، ولأن العدد زوجى، ومخافة الانقسام إذا تعادلت الأصوات، أضاف عمر إليهم ابنه عبد الله بن عمر على أن لايكون له من الأمر شىء، موصيا ومنبها أنه خارج دائرة الاختيار، فلا توريث، وإنما هو مضاف للترجيح فقط إذا تعادلت الأصوات.. فلم يدر بخلد عمر مثلما لم يدر بخلد أبى بكر توريث إمارة المسلمين للأبناء أو لغير الأبناء من ذوى القرابات، ولا دار هذا بخلد أحد من الصحابة.. وحين اتفق مجلس الشورى على جعل الأمر لعبد الرحمن بن عوف للتشاور ليختار الأصلح على ما هو معروف فى رواية طويلة، فإنه بعد أن عدل عن على بن أبى طالب إلى عثمان بن عفان، لم يل عثمان إمارة المسلمين إلاّ ببيعة عامة حرة مختارة من المسلمين، وهكذا كانت بيعة الإمام على بن أبى طالب يوم اغتيال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وهو هو ما تقيد به الإمام على حين طُعن وأشرف على الموت وسألوه فى ولاية ابنه الحسن فلم يقبل أن يورثه الحكم، وقال قولته المأثورة: "الأمر لكم، لا آمركم ولا أنهاكم"!

* **

لغرض فى نفس يعقوب، كان المغيرة بن شعبة المحرض لمعاوية على أخذ البيعة لابنه يزيد فى حياته، أما الغرض فهو طلب الحظو لدى معاوية، واتقاء عزله عن الكوفة بعد أن شاع قرب تعيين سعيد

بن العاص محله.. وقد كان للمغيرة ما أراد من رضاً وحظوة، فسر معاوية للاقتراح الذى يلاقى هوى الآباء، ورد المغيرة إلى ولايته مكافأة له على "إخلاصه" للبيت الحاكم!

ولكن معاوية أول من يدرك أن الغرض محبب جميل، ولكن المهمة العسيرة، فقد سبقته عهود لم تعرف "التوريث"، وليس من المنتظر أن تمر الفكرة بسهولة، فلا بدّ لها من الترتيب والحيلة ولا بأس من الخداع والمخاتلة!.. لم ينشغل معاوية كثيراً باليعاقبة الذين جعلوا يزينون له التوريث ولكل منهم غرضه وثمنه الذى يريده ويعرفه له معاوية، بيد أن المعضلة فى الصفوة وفى عموم الناس الذين لاغرض لهم كأغراض اليعاقبة.. كانت نقطة البداية البحث عن مسمى غير مسمى "التوريث" تحاشياً لوقعه المرفوض، فليكن الترويج إذن بفكرة "الاستقرار" وضمان عدم اضطراب الأمور بعد رحيل معاوية أو عجزه صحياً عن الاستمرار!.. ومع هذا فإن "الخدعة" لم تنطل على أحد، حتى فى العراق التى ظن معاوية أن صاحبه المغيرة كفيل بترويجها فى دائرة حكمه هناك.. لم يصادف المغيرة القبول الذى ظنه للفكرة وتمناه، بل وانبرى زياد بن أبيه والى باقى العراق بمعارضة شديدة ساقها لمعاوية محذرا من أنها ستؤلب عليه الناس.. وهو هو ما أكده أهل الحجاز الذين جاءت ردودهم عنيفة فى رفض هذا الخروج عن الشورى والبيعة وفى أوانها التى اعتادها الناس، ونفورهم الصارخ من فكرة التوريث التى قال له بعضهم عنها: " تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل؟!!

ربض معاوية ـ ولكن إلى حين، فقد سيطرت عليه الفكرة حتى اعتنقها اعتناقا لا يتزحزح عنه، يواريها ويسكت على مضض عنها، ولكنه يتحين لها الفرص ويتوسل لها بالخداع والحيلة، وبدت فرصة تجديد المحاولة حين توفى الحسن بن على، وكذا زياد بن أبيه الذى كان معاوية يطمع فى عدوله عن الرفض بعد أن آخاه وألحقه بأبيه

أبى سفيان! ولكن الذى لم يعمل معاوية حسابه، هو قريبه ووالية الأموى على المدينة: مروان بن الحكم.. لم يفته فتور تحركه للدعوة للتوريث وظن به أنه ربما أرادها لنفسه، فبادر معاوية بعزله، وولى بدله سعيد ابن العاص، وانتهز فرصة موسم الحج، ليخرج ويتولى بنفسه تليين أهل الحجاز لينال ما يريد!!.. فلقى بكل من المدينة ومكة ما يكره - من الصحابة وكبار أبنائهم، وعلى رأسهم عبد الله بن الزبير والحسين ابن على وعبد الله بن عمربن الخطاب وعبد الرحمن بن أبى بكر، وخيروه بين ما فعل الرسول - عليه السلام - الذى لم يستخلف أحدا وترك الأمر للمسلمين، وبين ما فعله أبو بكر الذى أشار برجل من قاصية قريش لا يمت له ببنوة ولا بقرابة مقترحا على الناس أن يبايعوه إذا ارتضوه، وأخيرا ما فعله عمر حين جعل الأمر شورى لستة ليس فيهم ولده ولا أحد من بيته! هنالك أدرك معاوية أنه لا سبيل إلى احتياله، فعاد ونادى فى الناس ليجتمعوا إليه فى المسجد لأمر يهمهم، بينما أمر صاحب حرسه بأن يقيم على رأس كل رجل من المعارضين رجلين مع كل منهما سيف ليضرباه بسيفيهما إذا ردَّ على معاوية قوله، فكان لمعاوية ما أراد من أخذ البيعة كرها بعد أن أعياه أن يأخذها رضاءً!!!

***

كان هذا التحول المدفوع بلا شىء غير العاطفة الأبوية - تحولاً خطيرا فى دولة الإسلام التى قامت فيما سلف على الشورى، وظلت الأمة الإسلامية تعانى توابع هذا التحول وتداعياته ثلاثة عشر قرنا، بدأت المواجهات بفتن وإحن وثورات، سالت فيها دماء، سواء فى مأساة الحسين بن على فى كربلاء، أم فى حصار الكعبة واستباحة مكة ثلاثاً بعد مقتل عبد الله بن الزبير الذى سبقه قتل أخيه مصعب بالعراق، أم فى ملاحقة المختار الثقفى والقضاء عليه وعلى حركته عبر دماء زكية سالت بسبب فكرة "التوريث" التى راقت لمعاوية

وراقت لمن جاءوا بعده، وكيف لا تروق ومحبة الأبناء والانحياز لهم فطرى وجبلى ومحبب للنفوس، كل هذا جرى أعمى ضريراً بلا تبصر، مع أن التاريخ القديم والحديث فى الشرق وفى الغرب قد حفل بمشاهد دماء غزيرة سالت على جدار السلطة، ودلت الدماء التى سالت على أن عشق السلطة والهيام فى حبها قد دفع أبناء إلى قتل آبائهم تعجلاً للسلطة، وحَضَّ آباء على قتل أبنائهم صبراً خشية منهم على سلطتهم!!.. ذلك أن تحكم الأهواء والنوازع يعطل العقول والأفهام، فراق لخلفاء معاوية ما راق له، وصار "التوريث" سنة متبعة فى الدولة الأموية، ثم فى الدولة العباسية وفى الدويلات التى خرجت منها فترات ضعفها كالفاطمية والأيوبية والطولونية والإخشيدية والغزنوية والبويهية وغيرها.. صار "التوريث" هو ديدن جميع الحكام، وربما أخذت بعضهم المحبة للعدد من بنيهم فورثوهم تباعا كما فعل عبد الملك بن مروان مع أبنائه الوليد وسليمان ويزيد وهشام.. لم يقطع تسلسلهم على سدة الحكم سوى ابن عمهم عمر بن عبد العزيز - توسط سليمان ويزيد والذى تلاه أخوه هشام، ثم من بعده وليد بن يزيد.. كان هذا كله خروجا عن مبادئ الإسلام، وعن سنة الراشدين، حتى رأينا المهدى يعهد لولديه الهادى ثم هارون، ورأينا الهادى يتخذ كل المعاذير لخلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر لولا أن عاجله الموت الذى كثرت الروايات بأنه بفعل سُمٍّ دُس له من الخيرزان التى كانت ميالة لابنها هارون، ثم رأينا هارون الرشيد يعاود ما ارتآه أبوه وعبد الملك بن مروان، فيعهد تباعاً لأولاده الأمين والمأمون والمؤتمن، دون أن يعمل حسابا واعيا عاقلا لعشق السلطة وسيطرتها على النفوس التى هيأت فى النهاية للأخ قتل أخيه، فمات الأمين قتيلا بأمر أخيه المأمون فى رواية طويلة ذكرها الطبرى وذكر فيها أن الأمين وقد استشعر المراد به أخذ يقول لقاتليه: "ويحكم! إنى ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم، أنا ابن هارون، وأنا أخو

المأمون، الله الله فى دمى "! ولكنهم صموا آذانهم كما آوصدوا قلوبهم وضربوه بالسيف، وتكاثروا عليه وعرقبوه، ثم هجموا عليه وحزوا رأسه حزّاً كالخراف، وحملوا رأسه فى "طست" إلى شقيقه المأمون الذى فرح برأس آخيه ونصبها ـ للناس (!؟) ـ على باب "الأنبار "!!

هذا هو عشق الملك والرئاسة والصدارة والسلطان وما يؤدى إليه، وقد هالنى ما رأيته شرقاً وغرباً وأنا أعد مادة كتاب: "دماء على جدار السلطة" !.. رأيت عشق هذا السراب تهون أمامه الدماء، وتتلاشى الآبوات والبنوات والآخوات والقرابات والعلاقات والمحبات، ورأيت كيف يتجمد قلب الأب فيقتل ابنه صبرا لأنه اعتقد أو ظن أنه طامع فى السلطان، ورأيت الابن تتجمد وتتلاشى كل عواطفه فيقتل أباه أو ينفيه ـ إن رَقَّ قلبه! ـ ليقفز إلى كرسى العرش الذى يتعجل الوثوب إليه، ورأيت الأخ يقتل آخاه أو يحبسه طوال عمره مقنعاً بقناع حديدى، لاتحركه عاطفة آخوّة ولا رابطة دم، وإنما هذا الجشع الواهم لسلطة خادعةٍ كالسراب، كم سالت وأريقت من أجلها دماء، وضاعت وضيعت مصائر دول وشعوب وأمم!

* * *

لقد أكد رئيس مصر، وصادقه نجله، أنه لا سبيل ولا نية فى مصر إلى توريث، ولكن اليعاقبة الذين صاغوا تعديل المادة / ٧٦ من الدستور وضعوا صياغة عجيبة محرضة على هذه الفكرة السقيمة الضريرة، بأن رتبوا فى النص الشيطانى لصيغةٍ للانتخابات التالية تخلو من أى منافس، وتغرى وتحرض على التقدم بقالة إنها انتخابات واقتراع ـ برغم عدم وجود مرشح منافس ـ فهكذا صاغوا النص المعدل، وهم يعلمون ويعلم الناس الذين يظنونهم جهلاء عميان أغبياء ـ يعلمون أن الاقتراع على "واحد وحيد" هو "التوريث بعينه" مهما اختلفت المسميات ومهما علت الأهازيج والطبول وأسدلت الستائر على

ما وراء الكواليس وأطلقت بالونات الخداع؟.!! وهم يعلمون فيما يعلمون أن الاستفتاء المغلوط الذى أجرى حول تعديل المادة ٧٦ من الدستور لا يطهر النص من عدم الدستورية الذى شابه من عدة نواحٍ.. هذه هى قواعد القانون الدستورى وآراء فقهائه، بل إن الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد نائب رئيس المجلس القومى لحقوق الإنسان والمجلس القومى للمرأة - قد كتب فى مقاله المطول عن الإصلاح الدستورى بأهرام ٤ أغسطس ٢٠٠٥ - أن الاستفتاء ذاته قد أجرى بأسلوب غير صحيح!!!

أيها السادة نصيحة صادقة خالصة: دعكم من المزينين المحرضين اليعاقبة ومن الساكتين عن الحق، ولاتستخفوا ولا تستهينوا بعقول وأفهام وغضبة الشعوب!!!.. ودعونا معا نصل بمصر المحروسة إلى بر السلامة والأمان!!